قضية حمو الأقرع

قصة بقلم مبارك ربيع

لم تكن له قضية بالمرة ، ولكنها تكونت تدريجيا فيما بينه وبين نفسه قبل ان تصبح قضية الناس او سكان العمارة على الاقل ، او على الاصح لتصبح قضية يتحدثون فيها دون علم به او بعلم ، فقد كان غائبا على كل حال . وغيابه هو مثار القضية عندما ظهر في الجرائد اعلان يقول : « السيد حمو بن سعيد المكنى حمو الاقرع يقارب الخمسين من عمره اختفى منذ ستة اشهر ، كان يشتغل بوابا بالعمارة رقم ١٧ شارع المحافظة بالرباط .. فالمرجو ممن عرف عنه شيئا ان يخبر به الدائرة ... الشرطة او زوجته السيدة ... واولادها القاطنين بـ .. الخ » .

حينئذ انتبه سكان العمارة الى غيابه او على الاقل اهتموا به وتحدثوا لبعضهم فيه وكانت مناسبة ليتعارفوا ، وكانوا قبل ذلك لا يكاد احد منهم يعرف صاحبه .

وفي علمهم ان السيد حمو ، عفوا حمو الاقرع ، نبت مع العمارة منذ ما لا يحددون ، فأقدمهم سكنا تبلغ اقامته اكثر من عشر سنوات كان حمو الاقرع اول من استقبله بها ، ولعل صاحب العمارة وحده كان قادرا على تحديد تاريخ دخول حمو الى العمارة ، ولكنه بعد ان بذل جهدا كبيرا للتذكر قال لرجل الشرطة وحوله بعض سكان العمارة « والله العظيم ما عرفت بالضبط . الواقع انه قديم عندي في الخدمة ، ولكن الوقت بالضبط .. ما نعرف .. بلا شك سجلت التاريخ عندي ولكن الان نسيته » .

وكان لاقدم ساكن من بين الجيران ان افاد ان الرجل اشتغل بوابا اكثر من عشر سنوات بدليل انه استقبله .. وافادت زوجته انها لا تزال تسكن مع اولادها الاربعة الصغار في المسكن الذي اكتروه منذ تاريخ لا تذكره ، وهو بالتأكيد قبل عمل زوجها بالعمارة بسنوات . والمسكن صغير في احد ضواحي المدينة . كما افادت ان البنيقة التي كانت مخصصة لزوجها في العمارة لم تكن تكفيه الا ليمدد رجليه ، فلم يكن بالامكان نقل اسرته اليها ، وان زوجها كان يزور بيته ذاك بانتظام كل يوم في ساعات فراغ من ليل او نهار ، ليقضي فترة مع اسرته ، وانه كان ينفق عليهم بكل ما يمكنه ، ولم تتغير ابدا معاشرته لهم ..

وتلقف الشرطي الكلام ليسأل الجيران المتحلقين حوله في مدخل العمارة :

ـ يعني حتى واحد منكم ما لاحظ غيابه في بعض الاوقات .. اوقات كان يمشي فيها عند امرأته واولاده ؟

وتكلم شاب وسيم على عينيه نظارتان عدل وضعهما باناقة :

ـ الواقع .. انا كنت نلقاه في كل وقت نحتاج اليه

وتساءل الشرطي مؤكدا :

ـ في كل وقت ؟

ـ ايه .

ـ في الليل ، في آخر الليل مثلا ؟

واجاب الشاب الوسيم :

ـ حتى بعد نص الليل في بعض الاحيان ..

وتنحنح الشرطي متفحصا :

ـ ويمكن تقول لنا سبب حاجتك له في هذا الوقت ؟

وبدا التعلثم ، فكان لا بد من البحث عن سيجارة تزيل الارتباك وابتسامة وجلة ، وقال الشاب وهو يجول ببصره فيمن حوله :

ـ كلنا هكذا .

ولم يحول الشرطي عينيه من عيني الشاب الذي بدا ضحية وعلامة لا يجوز التفريط فيها :

ـ اولا سألتك عن نفسك ، وثانيا سألتك عن سبب طلبك له في آخر الليل ، وثالثا المفهوم من كلامك ان الحاضرين كانوا كلهم في حالك مع السيد ..

واضطر الشرطي الى ان ينظر في مذكرته ليتذكر الاسم الكامل للمختفي .

ورد الشاب قبل ان يفلح في اشعال سيجارته:
ـ قلت لك كلنا هكذا .

حينئذ تكلمت سيدة من سكان العمارة :
ـ لا . هذا يتكلم على نفسه او على غيره من الرجال .. يمكن .. لكن النساء محكومات ، وحتى واحدة منا ما عندها غرض بالسي حمو الاقرع .

وركز الشرطي في ملامحها ومعلوماته عنها تتدافع في داخله : موظفة بشركة للتأمين .. شبه مطلقة في قضية معلقة .. لها بنت في حضانة في داخلية ..

ولكنه لم يستنتج من ملامحها ارتباكا او اضطرابا ، وجالت عيناه في الوجوه المحيطة به ومعلوماته عنهم تتابع في داخله بسرعة البرق . وتوقف ليسأل :
ـ وانت عمره ما جاء عندك ؟

واجاب صاحب الحانوت المقارب للعمارة :
ـ الحانوت للجميع يا سيدي .
ـ اذن كان يجيء عندك .
ـ ايه . يقضي بعض المسائل .
ـ من اي نوع ؟
ـ كل نوع .. خبز الخ .
ـ وغيره ؟
ـ هذا ما كان .. الى آخره .

وادرك الشرطي انه يحوم في حلقة مفرغة بطريقته هذه ، فوسع مجال استعلامه :
ـ يا الله قولوا لنا الان على اصحابه . لازم كان عنده اصحاب بحالنا ؟

ورغم انه ركز في وجه المقاول ، الا ان سؤاله كان موجها للجميع للتخفيف وطأة الاستجواب . ورد المقاول بافكار منظمة :
ـ هذا الرجل حقيقة كان معنا في العمارة مدة طويلة ولكن انا ما عندي به معرفة صحيحة غير السلام عليكم ، عليكم السلام ..

وترددت عدة اجوبة متداخلة من الجميع :
ـ هذا ما كان .

وبدت نظرية المجال الموسع للبحث غير مفيدة كنظرية المجال الضيق . لذلك فكر الشرطي قليلا قبل ان يفتح مجالا من عنده ، حينئذ تنبه اليه الجمع وهو ينهي اليهم ان الامر يتعلق بقضية انسانية خالصة ، فالرجل ليس مجرما ، ولا متابعا بشيء والتحريات تفيد انه غير مدين لاحد ولا متكبرا او مغامرا بل كان منطويا منعزلا ، ومن جهة اخرى فطيلة الشهور التي مضت على اختفاء السيد حمو .. المعروف بحمو الاقرع لم تظهر في الافق اية جريمة في البلد كله تدل على انه قاتل او مقتول او سارق. فالمسألة انسانية تهدف الى جمع اكبر ما يمكن من معلومات لمساعدته ان كان في ضيق او على الاصح للتعرف عليه ، وعلى مكانه وربط علاقته باسرته ، وهذا اهم شيء خصوصا وانه كان مستقيما مع اسرته رغم دخله المحدود. والمقصود الان هو التوصل بواسطة الحاضرين الى معرفة السر وراء غيابه . ويستنتج من مقارنة اقوال زوجته ببعض ما فاه به الحاضرون ان الرجل كان منطويا لا يخبر احدا عن احواله الخاصة او ان احدا لم يحاول ان يعرف منه ذلك ، وانه نجح في الا يجعل احدا يلاحظ غيبته عن العمارة عندما يزور اهله يوميا ليلا او نهارا ربما لانه كان يتخير الاوقات المناسبة . ولم يكن ايضا ملحاحا او متلهفا على طلب المال بدليل انه كان دائما راضيا عن اجرته الزهيدة من صاحب العمارة ، ولم يكن يتذمر من تأخر الاجر احيانا .. الخ . المسألة انسانية ، انسانية فقط ولا خوف على احد فيها ابدا .

وكان لهذا العرض مفعوله الحسن ، اذ اشعل الشاب الوسيم سيجارته اخيرا ، وعادت ملامح الحضور وعضلاتهم الى وضعها الطبيعي بعد ان زايلها التوتر .

وقالت موظفة شركة التمأين :
ـ مسكين الله يرده على خير لاولاده .

وامن الحاضرون بأدعية مماثلة .

بالتأكيد لم تكن لحمو الاقرع قضية في بداية التحاقه بعمارة شارع المحافظة ، وقد اصبحت له فيما بعد قضية فيما بينه وبين نفسه ، ولكن ليس من المؤكد انه قصد بهذا الاختفاء ان يجعل من نفسه قضية الناس او بعضهم على الاقل ممن لهم علاقة بالعمارة من صاحبها الى الجيران القاطنين والمجاورين . وهو ان كان قد اختار هذه الطريقة فليس من المؤكد ان هؤلاء الناس ادركوها كاملة او ادركوا بعض جوانبها .

سكان العمارة كانوا جماعة نظيفة مهذبة ، وكانوا على جانب من اللطف . وصاحب العمارة كان من طبيعتهم الا انه مجرد عابر سبيل ، آخر كل شهر يمر لاخذ الكراء او يستعلم عن الشقق الفارغة او المهيأة للافراغ دون ان ينظر في الواقع الى وجه البواب او يناديه حتى بكنيته . لعل ذلك لان حمو الاقرع كان دائما يقف بجانبه كظله بمجرد ظهوره ، فلم يكن ثمة داع لمناداته . كل ما هناك ان صاحب العمارة لاحظ ، وانه ليتذكر ذلك بجهد كبير ، ان الرجل اوشك ان يلقي عليه سؤالا وهو يكاد ينصرف . فتوقف صاحب العمارة ، وقاطعه قبل ان يسمع السؤال قائلا :

ولكن حمو الاقرع افاد انه لم يرد ان يسأل عن اجرته لا عن المسبق منها ، ولا عن المؤخر .

وقال :
ـ لا آسيدي . انا على شيء آخر .
ـ قل .

وتعلثم وبدا انه لا يجد التعبير المناسب . فكرر :
ـ الواحد لما يحس في خاطره بشيء .. شي .
وانتظر صاحب العمارة لحظة ، ولكن وقته كـان جد ضيق فانصرف قائلا :
ـ من بعد .. من بعد .

وحين نادى ساكن الشقة الثالثة الى اليمين حمـو الاقرع في الثانية صاحبا ليبعثه لجلب شيء معيـن يصلح لاتمـام سهرة الرفاق عنده ، من مكان لا يعرفه غيره وعاد حمو ، كان السؤال قد تجمع في ذهنه ولسانه مركـزا وواضحا ، لذلك مد المطلوب الى الشاب الوسيم وقال له:
ـ عندي سؤال .
وبدت عينا الشاب حمراوين غائبتين ،وقال بلطف:
ـ خل عندك الباقي .. تصبح على خير .

وحين ناداه مرة اخرى بعد ساعات من المطلوب الاول وطلب منه ان ينوب عنه في مصاحبة فتاتين الى سكناهمـا لانه غير قادر على ذلك كـان السؤال واضحا مركزا ولكنه كان متأكـدا من انه لن يجد جوابا من صاحبه ، لذلك رمى السؤال على احدى الفتاتين ، بعـد ان حوره كثيرا ليصبح ملائمـا حسب رأيه :

فقال لهـا :
ـ كيف جاتك الدنيـا ؟

نظرت اليه ثم قهقهت قليلا وهي تتكىء على صاحبتها، وردت عليـه :
ـ الدنيا ؟ وانت مالك ؟ خلها على الله .
وانسلت مع رفيقتها الى مسكنها .

وعندما عاد لموظفة شركـة التأميـن الارملة بزرين لقميصها البني ، وكانت لا تزال في شق بابها تنتظـر عودته ممسكـة فتحة القميص باحدى يديها ، صاغ سؤاله وهو يمد يده اليها بالمطلوب :
ـ انا في هذي العمارة بحال ..

لكنها كانت قد اغلقت الباب دونه ، وحين خرجت بعد لحظة مسرعة ومتعثرة برجلين لم تستقرا بعـد في وضعهمـا المريح بالحذاء كان مـا يزال واقفا في فسحة مدخل العمارة . ولم يسمع منهـا الا همهمة :
ـ الوقت مشى يا ربي :

وسأله صاحب المتجر المجاور ذات يوم :
ـ حمو .. شفت هذا النهار بحال .. ظاهر ليا عندك شـي .. حاجـة .

وحينئذ انتبه حمو الاقرع الى ان بالامكان افراغ ما بذاته الى هذا الرجل ، فبامكانه ان يستمع اليه ويده تجمع المواد المطلوبة وترصفها في القفة ،وقال حمو الاقرع :
ـ الحقيقة يا خي ، هذي شهور وراسي عامـر بامـور ...

وكان صاحب الحانوت قد اعد كل المطلوب ، فدفع القفة الى حمو الاقرع ، وهو يقول :
ـ يا لله يا خي ، اجر لصاحبك، ها هو بدا يطـل عليك ، وقل له يعطيك الحساب الله يخليك .

وبالفعل ، كان اقدم ساكن بالعمارة ، قد استبطـأ حمو الاقرع ، فأطل من نافذته يستعجله ، وعندما اعطاه حمو القفة عند باب شقته في الطابق الثاني ، وحاول ان يخطو راجعا استوقفه الرجل وقال غامزا ويده على كتفيه :
ـ هي خرجـت ؟

وبدا عدم الفهم على حمو ، ولكـن صاحب الشقـة اوضح سؤاله بابتسامة عريضة ازاحت طاقم اسنانـه عن وضعه المعهود ، فشد شدقيه يعيد وضعه ،وهو يغمز :
ـ صاحبتنا التحتانيـة .
ـ آه .. ما زالت ما خرجت .
ـ بارك الله فيك يا سي حمو .

وحين انصرف الشرطي واوشك الجيران ان ينصرفوا ايضا ، وجد صاحب العمارة فرصة ليحدث بعضهم عـن الايجار المتأخر وهو يتحسر على البواب :
ـ مسكين ، عمري ما سمعت منه كلمة .

الرباط ـ المغرب